الغفلة عن الجوانب المعنوية آفة النهضة

بسم الله الرحمن الرحيم

المنزل صغير، لذا فهو يسبب الأذى للسادة الموقرين.. أتمنى لهم التوفيق والسلامة. وأود تذكير السادة، في خارج البلد وداخله وكذلك الشبان، ببعض الأمور الضرورية.

في السابق، وبعد انقضاء أمد على ظهور الإسلام، كان اهتمام أهل العلم وبعض الفئات المختلفة من الناس منصبا على الجوانب المعنوية في الإسلام. فهم كانوا يهتمون بالآيات والأحاديث الشريفة المتحدثة عن الجوانب المعنوية وتهذيب النفس وما وراء الطبيعة. والآيات المرتبطة بالقضايا المعنوية، أي بالوجهة الإنسانية من عالم الغيب، كثيرة.

وقد بقي الوضع على هذه الحال أمدا طويلا، وكان الاهتمام بالأحكام الاجتماعية والسياسية في الإسلام قليلا ومعدوما.

ثم ظهرت، شيئا فشيئا، فئات بالقضايا الاجتماعية والسياسية والقضايا الراهنة. لكن أفرادها وقعوا في الجهة المقابلة للأولى، أي أن اهتمامهم انحصر بهذه القضايا وبأحكام الشؤون الحكومية، فكانوا ينظرون في الجانب الآخر من الورقة فقط، فيما كان أمثال الفلاسفة والعرفاء والصوفية ينظرون إلى الجانب الأول فقط. وتنحصر أحاديثهم في الجوانب المعنوية من الإسلام وإليها يدعون الناس. بل إن بعضهم كان يسعى إلى تفسير الأحاديث الشريفة أو الآيات المرتبطة بالأمور الطبيعية والقضايا الاجتماعية والسياسية بالقضايا المعنوية هذه ويصفونها جميعا ضمن هذا الجانب الباطني للإسلام والقرآن.

وكان هذا ابتلاء بالطبع، لأن حصر الاهتمام بالجوانب المعنوية وإغفال القضايا الاجتماعية الواردة في القرآن، وعن الآيات والأخبار الواردة بشأن الحكم الإسلامي والسياسة الإسلامية والقضايا الاجتماعية وإعمار هذا العالم، هي غفلة عن الإسلام وتحجيمه في بعد واحد والغفلة عن عالمه الطبيعي. فقد غفلوا عن أن الإسلام يهتم بعالم الطبيعة أيضا وبكل الأمور التي يحتاجها الإنسان.

ولهذا، فإحدى المشكلات التي ابتلي بها الإسلام هي مساعي أولئك الأشخاص، كالكلاميين، وأشد منهم الفلاسفة، وأشد من هؤلاء العرفاء والصوفية، الذين كانوا يريدون ويعزمون على صرف الآيات القرآنية كافة إلى الجوانب المعنوية .

بل وكانوا يسعَون إلى إرجاع حتى الآيات والأخبار أو الروايات المتحدثة عن الشؤون الاجتماعية وعن عالم الطبيعة إلى الأمور المعنوية، غافلين عن الإسلام وشموليته، فقد كانوا مهتمين بأحد بعديه غافلين عن البعد الآخر. ينظرون إلى الباطن ويغفلون عن الظاهر.

أما اليوم، فقد أصبح ابتلاء الإسلام على نحو آخر. حيث يسعى شبابنا، الشبان المثقفون والذين بلغوا مراتب عالية في تعلم العلوم الطبيعية، إلى إرجاع كافة الآيات والأحاديث الشريفة إلى الأمور الطبيعية هذه، فيغفلون عن الجوانب المعنوية، وهم يرجعون حتى الآيات الخاصة بالقضايا المعنوية إلى المسائل الطبيعية والعادية. وهؤلاء أيضا يهتمون بالإسلام لكنهم غافلون بمعنى أنهم قرأوا إحدى صحيفتي الإسلام وغفلوا عن الأخرى.

وكلا هاتين الطائفتين لم تعرفا حقيقة الإسلام بالكامل. فدعوة الإسلام لا تنحصر لا بالجوانب المعنوية فقط ولا بالشؤون المادية فقط. بل إنها تشملهما معا، أي أن الإسلام والقرآن الكريم جاء لبناء وتربية الإنسان في كافة الجوانب.

عندما تلاحظون ماهية الإنسان تجدونه لا يختلف في أصل نشوئه عن سائر النباتات، فبذرة أي نبات، كنواة التمر أو غيرها، تودع في التربة، في محل معين منها فتربيها. وكذلك حال الحيوان تقع نطفته في الرحم، مثل البذرة، وتنمو فيه. فالأرض محل نمو وتربية البذرة النباتية، والرحم محل نمو وتربية نطفة الحيوان. وإذا تمكنوا من إيجاد محيط مناسب تتوفر فيه نفس خصائص الرحم لنمو وتربية النطفة لأصبح من الممكن تربية نطفة الإنسان خارج الرحم. فهو بالأصل نبات مثل سائر النباتات لا يختلف عنها في أصل النمو سوى من جهة محل النمو والشروط الخاصة بكل منهما. فهما مشتركان في أصل بذرة البذرة ثم نموها بواسطة القوى التي أودعها الله (تبارك وتعالى) في الأرض أو تلك التي أودعها في الرحم.

البذرة التي تزرع في الأرض تنمو تدريجيا لكنها تبقى في حدود الحالة النباتية إلى النهاية، حتى عندما تعطي ثمرتها. فثمرتها نباتية أيضا. أما النطفة التي تزرع في الرحم كما هو حال الحيوانات كافة وبضمنه الإنسان، فإنها تنتقل تدريجيا من المرحلة النباتية إلى مرتبة أعلى فتحصل وهي في هذا الرحم، على روح حيوانية تمتاز بها عن سائر الموجودات النباتية. حيث أن المشتركين في الروح الحيوانية حسّاً وحركة. وعندما يتولد أحدهم في هذا العالم ينفصل عن محله الأول وهذا امتياز لهم عن النباتات التي لو فصلوها عن محيطها لانتهى أمرها. في حين أن الحيوانات تنفصل في الوقت المناسب. حيث تصل حالتها النباتية إلى كمالها، وتظهر مرتبتها الحيوانية فتنقطع حاجتها للرحم.

فتدخل هذا العالم وتشارك سائر الحيوانات في الأكل والشرب والشهوات وأمثالها. فلا فرق بين سائر الحيوانات من هذه النواحي.

لكن الحيوانات تتمايز فيما بينها في القوة الإدراكية، حيث أنها في القرد مثلا أقوى من غيره فهو يفهم شيئا ما. أما الإنسان فهو يمتاز عن سائر الحيوانات بإمكانية وصوله إلى مراتب عديدة من الرقي. وهو يختلف عنها في الإدراكات وفي غايات الإدراك. فإن لسائر الحيوانات قوى إدراكية محدودة. أما الإنسان فينبغي القول إن إدراكاته واستعداده للتربية غير محدودة تقريبا. فله كل ما في العالم الطبيعي وله أيضا أشياء إضافية، يشترك فيها مع كافة الموجودات، من الحيوانات والنباتات والمعادن وأمثالها، بما يمتاز به من كمالات وجودية. لكنه يمتاز عنها بإضافة هي وجود قوة عاقلة وقوة أسمى فيه لا توجد لدى تلك الموجودات.

إذا كان الإنسان مثل سائر الحيوانات ينمو إلى الحد الذي تنمو إليه سائر الحيوانات، لما كانت ثمة حاجة للأنبياء، فما حاجتنا للأنبياء إذا كان الإنسان يأتي إلى هذا العالم ليعيش مثل الحيوانات يأكل وينام ثم يموت؟ إننا بحاجة للأنبياء لأن الإنسان ليس كسائر الحيوانات التي ينتهي أمرها وهي في حدود مرتبة الحيوانية. بل له مرتبة فوقها، مرتبة ما فوق العقل حتى يصل إلى مقام لا نستطيع التعبير عنه، فهذا المقام الأخير يعبرون عنه كمقام "الفناء"، أو مقام كالألوهية.

وتربية الإنسان، من كافة أبعاده الجسيمة والروحية والعقلية وما فوقها، أمر لا تطيقه الطاقات البشرية لأنها فاقدة للعلم باحتياجات الإنسان وكيفية تربيته فيما يرتبط بما وراء الطبيعة. فلو جمعتم كافة قوى البشر لما استطاعت إدراك أكثر من خواص نفس هذا العالم الطبيعي، بل حتى خواص هذا العالم لم تُكشف بالكامل للبشر فهي قد انكشفت بحدود معينة. وإن كانت الآونة الأخيرة قد شهدت تقدما كبيرا في هذا الجانب، ولكن لا زالت هناك الكثير من الأمور لم تكتشف بعد وستكتشف فيما بعد. ومع ذلك تبقى هذه المكتشفات في حدود الطبيعة وهذا العالم المادي وهذا الجانب من الصحيفة.

إن ما يستطيع إدراكه البشر وما تسعه قوة إدراكه الطبيعية هو هذا العالم الطبيعي فلا يخرج من حدوده، حتى لو أدرك الإنسان، فرضاً، كافة خصوصيات هذا العالم واكتشف كل ما يرتبط بكمال الطبيعة وما يحدث فيها من تطورات. فيظل جاهلا بما وراءها وما فيها. كما أن ما يستطيع أن يدركه حتى لو بذل قصارى جهده، فيما يرتبط بالعلائق القائمة بين الأشياء لا يتجاوز حدود العلائق الطبيعية بين الأشياء. كالعلل والمعلومات والأسباب والمسببات. وهذا الأمر يبقى على ثباته حتى عندما يتقدم

الإنسان ويكتسب العلوم ويصل إلى كشف شؤون هذا العالم فلا يتجاوز علمه حدود إدراك هذا العالم الطبيعي بكافة خصوصياته واكتشاف كافة العلائق بين أجزائه.

فهو مثلا يستطيع معرفة علاقة الزلزلة بالأرض وزمن وقوعها وتحديد كافة نتائجها وآثارها ومقدارها واتجاهها أفقيا أو عموديا. كما يستطيع معرفة علاقة طبيعة الإنسان والشيء الفلاني وأمثال ذلك. فلو فرضنا أنه أدركها جميعا ولم يبق أمامه مجهولا منها فإدراكه هو في حدود العالم الطبيعي لا يتعداه إلى ما وراءه ولا يستطيع ذلك. ولذلك أنكرت طائفة من الفلاسفة، الفلاسفة الطبيعيين، ما وراء الطبيعة دونما دليل على هذا الإنكار الناتج من مجرد أن ما وراء عالم الطبيعة ليس حسّيا ولا يمكن إدراكه بالعين. أي أنهم قالوا:.. لكوننا لم نره، كالعقل المجرد مثلا، بالعين المجرد ة ولم يخضع لسكين التشريح، لذا يمكننا أن نقول إنه "عدم!!"

وهذا القول خاطئ. فالواجب أن يقول: لا علم لي به، لا أقول إنه عدم. فالصحيح أن يقول الإنسان تجاه ما يجهله: إني وصلت إلى هذا الحد فأصدق هذا المقدار فلا علم لي بما عداه. لا أن يقول إنه "عدم" لمجرد عدم الإطلاع عليه. فأنتم لا تحيطون علما بكل العالم أو العوالم، لذا لا ينبغي لكم الإنكار.

هؤلاء وصلوا إلى هذا الحد من العلم، وهو حد الطبيعة، لا يتجاوزونه حتى لو انكشف لهم كافة خصوصياتها وطاقاتها وقواها والعلاقات بين أجزائها فلا يستطيعون توفير أكثر من الطموحات الطبيعية للإنسان وحاجاتنا الطبيعية. وغاية الأمر أن توفيرها يتناسب مع مقدار القوى الطبيعية المختلفة. فسابقا كان يلبي حاجته للتنقل بواسطة الجمال، واليوم بواسطة الطائرة، وقد يكتشف ما هو أكثر تطورا منها. ولكن التطور يبقى في حدود الطبيعة والاحتياجات الطبيعية.

ولو كان الإنسان منحصرا في حقيقته الوجودية في حدود العالم الطبيعي لما كانت ثمة حاجة لإرسال شيء له من عالم الغيب لتربية أو تنمية البعد غير الطبيعي من الإنسان. ولكن للإنسان بعدا مجردا موجودا على نحو الحقيقة تدل عليه نفس خصوصيات العالم الطبيعي، وهذا البعد تؤكده البراهين الفلسفية الثابتة. وتثبت أن للإنسان، بالإمكان (بالقوة) عقلا مجردا سيصبح مستقبلا مجردا تاما.

والذي تكفل بتربية هذا البعد المعنوي (غير الطبيعي) للإنسان يجب أن يكون عالما علما حقيقيا بالعالم الآخر (ما وراء الطبيعة)، قادرا على فهم علائق الإنسان بهذا العالم الآخر. وهذا العلم لا يمكن توفره في البشر لأن الإدراك البشري لا يستطيع فهم ما وراء الطبيعة مهما دق بصره، فإن ما وراء الطبيعة لا يمكن رؤيته بالمجهر، وإدراكه يحتاج أمورا أخرى.

ولأن هذه الأمور والعلائق خافية على البشر، وأن العالِم بها هو الله (تبارك وتعالى) فهو خالق كل شيء. لذا تقام علاقة ما بين الإنسان وبين عالم الوحي الإلهي بواسطة أشخاص وصلوا للكمال وسعَوا للكمالات المعنوية وعرفوها، فيُبعثون إلى الناس لتربيتهم وتنمية البعد الثاني في الإنسان.

والله غني عنا وعن تربيتنا، لا يضره أن نكون جميعا مشركين، ولا ينفعه أن نصبح جميعا موحدين. فالضرر والنفع متعلق بنا. وبعثة الأنبياء هي من أجل تربيتنا نحن، وتنمية البعد المعنوي فينا بالصورة التي تكون معها حياتنا سعيدة في العالم الآخر. ولو انعدمت تربية هذا البعد وانتقل الإنسان بهذا الطبع الحيواني إلى العالم الآخر فسيُحرم السعادة فيه، وتكون عاقبته الشقاء والسقوط في الظلمات.

لقد جاء الأنبياء من أجل تربيتنا، وبوحي من الله تعالى، في الجانب المعنوي؛ ونقلنا، بصورة تاريخية، من عالم الطبيعة إلى ذلك، وتقوية البعد المعنوي فينا لكي تكون حياتنا في العالم الآخر سعيدة بعدما ننتقل إليه. ولولا الأنبياء لكنا حيوانات لا تدرك أكثر من هذا العالم الطبيعي. فبعثة الأنبياء إنما تهدف إلى تربية الإنسان المستعد للرقي إلى ما فوق المرتبة الحيوانية لتكون حياته الأخروية سعيدة أيضا، كما هو حال حياته في العالم الطبيعي التي تكون كذلك إذا كانت كافة أحواله فيه على وفق ما يريد، وهذا لطف من الله (تبارك وتعالى) بالإنسان المستعد لهذه التربية.

تشتمل تربية الوحي الإلهي والأنبياء على تبيان العلائق بين هذين العالمين والأعمال المؤثرة في تربيتنا المعنوية إذا قمنا بها، ودعوتنا إلى القيام بها. وبالطبع فنحن لا نعرف علاقة إقامة الصلاة بالسعادة الأخروية.

لكن الله يعرفها. مثلما أنني وأنتم نجهل علاقة هذا الدواء الذي يعطيه الطبيب بالمرض الفلاني لكوننا لسنا أطباء لكنه دواء مؤثر. والطبيب الذي أدرك هذا التأثير أخبرنا بتناول هذا الدواء، وعلينا الطاعة لكي نبرأ من المرض.

والأنبياء هم العارفون . بواسطة الوحي الإلهي . بآثار أعمالنا الصالحة على سعادة العالم الآخر، وقد جاؤوا ليقولوا لنا:.. قوموا بالعمل الفلاني فهو يربي روحكم، ويؤثر في حياتكم الأخروية وسعادتها. كما نهَونا عن الأعمال المهلكة المدمرة للحياة الأخروية. فمثلما توجد بعض الأشياء الطبيعية السامة التي تهلك الإنسان إذا أكلها. كذلك توجد في عالم ما وراء الطبيعة عمل وعقائد هي بمثابة السم القاتل للإنسان إذا اعتقد أو قام بها. ولتأثيرها مراتب أيضا كما هو الحال مع السم الطبيعي. فتارة يمكن معالجة الإنسان من آثاره السمّية، وتارة أخرى يستحيل العلاج إذا تمادى الإنسان في تناول هذه الأشياء السامة.

وبالطبع فإن بعض أوامر ونواهي الأنبياء ترتبط بتنظيم عالم الطبيعة والحياة الاجتماعية فيه، ولكن قيماً كبيرة منها لا تتعلق بهذا الجانب بل ما وراء الطبيعة. فالإنسان موجود يحتاج إلى كل شيء من الماديات والمعنويات، وقد جاء الأنبياء لإرشاده إلى تلبية كل هذه الاحتياجات وهدايته إلى الأعمال التي تحقق له السعادة الكاملة إذا قام بها.

إذاً، فكلتا هاتين الطائفتين جاهلتان الإسلام. فلا يعرفه الذين أخذوا جانبه المعنوي وتركوا جانبه الاجتماعي، ولا الذين أخذوا جانبه الاجتماعي والسياسي وتركوا بُعده الآخر. أما العارف بالإسلام فهو الذي يعرف كلا بُعديه، المعنوي والظاهري المادي. والذي يريد أن يعرف حقيقة الإسلام فعليه أن يتعرف على هذين البعدين معا، فيتعرف على الآيات والروايات والأحكام الواردة في الشؤون المالية بالمقدار الذي تسعه معرفته، وكذلك يتعرف على الوارد منها في مجال تنظيم شؤون المجتمع والسياسة والحكم، فمن عرف هذين البعدين ـ بالمقدار الممكن للإنسان ـ فقد عرف الإسلام.

الإسلام ليس مثل الرهبانية المسيحية، بالطبع فقد حرفوا دين المسيح، وإلا فهو لم يحصر اهتمامه بالمعنويات فقط، كما أنه ليس مثل دين موسى الذي يطغى فيه الاهتمام بالجانب الطبيعي (المادي) للإنسان. وبالطبع فإن موسى (ع) من الأنبياء العظام ومن أولي العزم وكان (إنسانا) كاملا. وشرعته جاءت بما يحتاجه الإنسان، ولكن كتابه مثل كتاب عيسى (ع) قد اندرسا. والموجود منهما الآن يدل على أنهما ليسا التوراة الأصلية ولا الإنجيل الأصلي. أما كتابنا فهو ـ ولله الحمد ـ لا زال، ومنذ البداية، محفوظا. بل وتوجد نسخ منه بخط يد أمير المؤمنين والإمام السجاد (ع). فما بين أيدينا هو نفس القرآن ولم يتغير أصلا.

وعلى أية حال فهدف الإسلام هو تربيتنا، وإذا لم نتبعه بكافة أبعاده فلن نتربى, ولا ينبغي لكم أيها الشباب الأعزاء الغفلة عن الجوانب المعنوية، وهي الجهاد الأكبر، بسبب انشغالكم الآن بالعلوم الطبيعية أو أشكال النشاطات الجهادية الواجبة حاليا، وهذا الأمر يصدق علينا جميعا، فعلينا جميعا نصرة إخواننا في الدين الذين يقاسون الابتلاء في إيران الآن ومساعدتهم كحد أدنى، بإيصال صوت مظلوميتهم حيثما كنا. لكن انشغالنا بمثل هذه النشاطات الجهادية أو باكتساب العلوم الطبيعية يجب أن لا يغفلنا عن الجانب الآخر. فوجودكم لا ينحصر في عنوان "المجاهد" أو "العالم الطبيعي"، فهذه عناوين الجانب المادي لعنوان "الإنسان" الذي يشتمل على الجانب المعنوي أيضا، فعليكم أن تجتهدوا فيه أيضا.

عليكم الاهتمام بجميع أحكام الله، فلا يصح للمسلم أن يقول:.. إني أقبل الجوانب الجهادية في الإسلام دون جوانبه المعنوي، ولا أن يقول:.. أقبل جوانبه المعنوية دون الجهادية. بل يجب الأخذ بها جميعا، لأن المسلم هو الذي يؤمن بجميع ما جاء به النبي الأكرم (ص) ويعمل به.

وبناءً على هذا فلا يستخفوا بهذه الأحكام الظاهرية التي لا يعرف تأثيرها على روح الإنسان. فهي ذات تأثير مهم عليكم وعلى حياتكم في ما وراء حياتكم الطبيعية. فأكملوا جهادكم الظاهري وعلومكم الظاهرية والطبيعية وتابعوا في نفس الوقت الأمور المعنوية والجوانب الإلهية لتكون السعادة نصيبكم.

أسأل الله تعالى أن يرزقكم جميعا السعادة، وأن يوفقنا للعمل بواجباتنا الشرعية، وأحدها أن ندعم بما نستطيع هنا، هذه الحركة والنهضة التي تشهدها إيران حاليا، حيث يندفع أبناء الشعب الآن للتضحية بالأنفس والأموال والأبناء الأعزاء في هذا الطريق. وعليكم أنتم أيها السادة الحاضرون هنا من مختلف الفئات، أن تُطلعوا أصدقاءكم ومعارفكم من أهالي الدول التي تقيمون فيها، في أوروبا أو أميركا، على ما يجري في إيران. كلما التقيتم بهم في أي محفل أطلعوهم على جرائم العائلة البهلوية وهذا الملك، وهو أكثر خيانة وإجراما من كافة السلاطين الذين سبقوه أم لا؟ أليس مثل جرائمهم مضافا إليها الكثير من الأعمال الخيانية، حيث لأنه يعمد الآن إلى تخريب إيران فهو يريد أن يدمرها قبل أن يرحل. فأطلعوا أصدقاءكم على هذه الحقائق عندما تذهبون إلى معاهدكم العلمية، عسى أن يظهر بينهم، إن شاء الله، تيار يدعم إيران من حكوماتهم ومن المنصفين، وعسى أن يؤدي ذلك إلى قطع دابر شرور هذا الملك، واستئصال شره بمشيئة الله، وتصبح إيران لكم وتقطع عنها شرور الأجانب فتأخذون بزمام الحكم فيها وتديرونها بأنفسكم.

هوية الخطاب رقم. 48

فرنسا/ باريس/ نوفل لوشاتو: 25 ذي القعدة 1398 هـ، الموافق 28 أكتوبر 1978م.

الموضوع: الغفلة عن الجوانب المعنوية آفة النهضة.

المناسبة: استهانة التيارات الالتقاطية بالجوانب المعنوية.

الحاضرون: جمع من طلبة الجامعات والإيرانيين المقيمين في باريس .